الحشر وأرض المعاد

يوم الحشر

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١].

يخرج الناس حينئذ من قبورهم ويحشرون حفاة عراة[1] وقد ملئت قلوبهم خوفاً وفزعاً من هول ذلك اليوم العظيم.

---

(١) روى أبو يعلى في مسنده [٤/ ٢٨٥/ ٢٣٩٦] عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر يقول: «إنكم ملاقو الله حفاة عُراة غُرلاً».
وأخرج البخاري [٦٥٢٧] ومسلم [٢٨٥٩/ ٥٦] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس حفاة عراة غرلاً».
قالت عائشة فقلت: الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟
قال: «الأمر أشد من أن يُهِمَّهم ذلك».
وقال القرطبي: قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾: إنه ملك قائم على صخرة بيت المقدس فينادي: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، ويا عظاماً نخرة، ويا أكفاناً فانية، ويا قلوبا خاوية، ويا أبداناً فاسدة، ويا عيوناً سائلة، قوموا لعرض رب العالمين[1].
التذكرة [١/ ٢٣٤].
وقال المحاسبي في كتاب التوهم والأهوال: يحشر الله الأمم من الإنس والجن عراة أذلاء، قد نُزع المُلك من ملوك الأرض، ولزمهم الصَّغار بعد عُتوهم، والذلة بعد تجبرهم على عباد الله في أرضه.
ثم أقبلت الوحوش من أماكنها منكسة رؤوسها بعد توحشها من الخلائق، وانفرادها ذليلة من هول يوم النشور، من غير ريبة ولا خطيئة أصابتها، حتى وقفت من وراء الخلق بالذلة والانكسار لذلك الجبار.
وأقبلت الشياطين بعد تمردها وعتوها خاضعة ذليلة للعرض على الملك الديان، حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها تناثرت نجوم السماء من فوقهم، وطمست الشمس والقمر فأظلما عليهم، ومارت =

---

(١) ذكره ابن أبي الدنيا في الأهوال [٧٨] وقال محققه إسناده: ضعيف لأجل سعيد بن بشير.

والسؤال: هل يذهب الناس إلى المحشر على صورة واحدة؟

الجواب على ذلك: لا.. إنما يكونون على ثلاث هيئات: فمنهم من يمشي مسرعاً أو يكون راكباً؛ وهؤلاء هم المؤمنون من أهل الجنة.

ومنهم من يمشي على مهلٍ؛ وهؤلاء هم الذين كانوا لا يسارعون في الخيرات، بل كانوا يتمهلون، فإذا أُذن للصلاة يتباطؤون ولا يقومون على الفور للعبادة.

= سماء الدنيا من فوقهم فدارت بعظمها فوق رؤوسهم، وجميع ذلك بعينك وعين أهل الموقف ينظرون إلى هوله، ثم انشقت بغلظها فوق رؤوسهم، وهي خمسمائة عام، فياهول صوت انشقاقها في سمعهم، وتمزقت وتفطرت لهول يوم القيامة من عظم يوم الطامة، ثم ذابت حتى صارت مثل الفضة المذابة كما قال الجبار تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧] وقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝﴾ [المعارج] أي كالصوف المنفوش وهو أضعف الصوف، وهبطت الملائكة من حافاتها إلى الأرض بالتقديس لربها، فتوهم انحدارهم من السماء لعظيم أجسامهم، وكثرة أخطارهم، وهول أصواتهم، وشدة فرقهم من خوف ربهم، فتوهم فزعك حينئذ وفزع الخلائق لنزولهم، مخافة أن يكونوا قد أمروا بهم، فأخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسي رؤوسهم لعظيم هول يومهم، قد تسربلوا أجنحتهم، ونكسوا رؤوسهم بالذلة والخضوع لربهم وكذلك ملائكة كل سماء إلى السماء السابعة قد أضعف أهل كل سماء على أهل السماء الذين قبلهم في العدة، وعظم الأجسام والأصوات، حتى إذا وافى الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين، ثم أدنيت من الخلائق قاب قوسين أو قوس، فلا ظل ذلك اليوم إلا ظل عرش الرحمن، فمن بين مستظل بظل العرش وبين مضح[1] بحر الشمس قد صهرته واشتد فيها كربه وأقلقته، وقد ازدحمت الأمم وتضايقت، ودفع بعضها بعضا، واختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش، قد اجتمع عليهم في مقامهم حر الشمس مع وهج أنفاسهم، وتزاحم أجسامهم، ففاض العرق منهم على وجه الأرض، ثم على أقدامهم، ثم على قدر مراتبهم ومنازلهم عند ربهم من السعادة والشقاء، فمنهم من يبلغ العرق منكبيه وحقويه ومنهم إلى شحمة أذنيه ومنهم من قد ألجمه العرق فكاد أن يغيب فيه.

التذكرة [١/ ٢٦٨، ٢٦٩].

---

(١) مضح: بارز للشمس.

المعجم الوسيط [٥٣٥].

أما الثالثة: فيسحبون على وجوههم، وهؤلاء هم الذين كفروا بالله العظيم[1].

وهنا يثور سؤال: هل معنى ذلك أن الناس حين يقومون من قبورهم يكونون قد عرفوا مصيرهم؟ نقول: نعم.. بل إن الإنسان يعرف مصيره منذ ساعة الاحتضار، ففي اللحظات التي تخمد فيها بشريته وهو ما يعرف بـ «ساعة الغرغرة»

---

(١) أخرج البخاري [٤٧٦٠]، ومسلم [٢٨٠٦/٥٤] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه؛ أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٤٣] أيُحشرُ الكافر على وجهه؟

قال رسولُ الله ﷺ: «أليس الذي أمْشاه على رجليه في الدنيا قادر على أن يمشيَه على وجهه يوم القيامة؟»

قال قتادة حين بَلَغه: بلى، وعِزَّةِ ربِّنا.

وروى الترمذي [٢٤٢٤] عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنكم محشرون رِجالاً ورُكبانا، وتُجرُّون على وجوهكم»[1].

وروى الترمذي [٣١٤٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُحشرُ الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنفاً مشاةً، وصِنْفاً ركباناً، وصِنْفاً على وجوههم».

قيل يا رسول الله: وكيف يَمْشُون على وجوههم؟ قال: «إنَّ الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يُمْشِيَهم على وجوههم، أما إنهم يَتَّقون بوجوههم كلَّ حَدَب وشوك»[2].

وروى النسائي [٤/١١٦] عن أبي ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه قال: إن الصَّادق المصدوق حدَّثني أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج: فَوجاً راكبين طاعمين كاسين، وفوجاً تَسْحَبُهُم الملائكة على وجوههم، وتحشرهم النارُ، وفوجاً يمشون ويَسْعَوْنَ، يُلقي اللهُ الآفةَ على الظهر، فلا يبقى، حتى إن الرجل لتكون له الحديقةُ يعطيها بذات القَتَب، لا يقدرُ عليها»[3].

وأخرج البخاري [٦٥٢٢]، ومسلم [٢٨٦١/٥٩]، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُحْشر الناس يوم القيامة على ثلاثِ طرائق: راغبين وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثةٌ على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتَحْشُرُ بقيَّتَهم النارُ، تَقيل معهم حيث قالوا، وتَبيت معهم حيث باتوا، وتُصبح معهم حيث أصبحوا، وتُمسي معهم حيث أمْسَوْا».

---

(١) وحسنه الألباني في صحيح [٢٥١٢].

(٢) ورواه أحمد [٢/٣٥٤، ٣٦٣]، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي [٦١٢].

(٣) وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي [١١٩].

أي: اللحظات التي تسبق الموت مباشرة يعرف الإنسان فيها مصيره، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

ويقول جل جلاله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

إذن.. فالإنسان ساعة يموت يعرض عليه مقعده من الجنة ومقعده من النار[1]، وقد يتساءل الناس إذا كان من أهل الجنة، فلماذا يعرض عليه مقعده من النار؟

نقول: إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يُعرّف أهل الجنة مم نجوا منه، ولذلك يعرض عليهم مقعدهم من النار ليعرفوا نعمة الله الكبيرة عليهم إذ نجاهم من هذا العذاب، ثم يعرض عليهم مقعدهم من الجنة ليروا ما أعده الله من نعيم لأهل طاعته، لأن هناك مرحلتين في الحساب، مرحلة يزحزح فيها الإنسان عن النار، ومرحلة يدخل فيها الجنة، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. أي: أن الزحزحة عن النار مرحلة، ودخول الجنة مرحلة أخرى.

الله سبحانه وتعالى يُري المؤمن مقعده من النار ليحس بالهول العظيم الذي نجا منه، ويُري الكافر مقعده من الجنة ليعرف النعيم الكبير الذي حُرم منه.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرج البخاري [١٣٧٩]، ومسلم [٢٨٦٦/ ٦٤]، ومالك في الموطأ [١/ ٢٣٩/ ٤٧] والبيهقي في عذاب القبر [٥٩] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: «هذا مقعدك حتى يبعثك الله إلى القيامة».

أرض المعاد

يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

بعد البعث والنشور، وخروج الناس من باطن الأرض، فالخلق جميعاً يذهبون إلى أرض المعاد، ولكن.. هل يذهبون هكذا؟ كل منهم يذهب حيث يريد، ويتجه إلى أي مكان يريده، أم أن المسألة لها نظام محكم دقيق معد بحيث يكون كل شيء في موضعه تماماً؟

وإذا كانت هذه الأرض ستتبدل بأرض جديدة[1]، فهل سنمضي و كل يذهب باختياره إلى المكان الذي يريده وعلى هواه، هذا يتأخر وهذا يتقدم، وهذا يذهب يميناً، وذلك يذهب يساراً، وبعضنا يجري إلى الخلف هروباً من هذا الموقف الرهيب، وآخرون يزاحمون ليتقدموا من الصفوف الخلفية ليصلوا إلى الصفوف الأمامية، ليفرغوا من أمر الحساب قبل الآخرين!! هل سيحدث هذا؟ بالطبع لا شيء من هذا يحدث.

ومعلوم أنه بالموت قد انتهت إرادة الإنسان، فلم يعد أحد يملك أن يختار لنفسه شيئاً، ولا أحد يملك أن يفعل أو لا يفعل حسب هواه، فهذا الاختيار كان ممنوحاً للبشر في الحياة الدنيا امتحاناً لهذا اليوم، والآن وبعد أن انتهى الامتحان وأصبح كل إنسان رهن أعماله التي أطاع فيها الله والتي عصى فيها، وبدأت أولى خطوات الطريق إلى الحساب، لم يعد أحد يملك من أمره شيئاً.

وفي القرآن الكريم، وصف دقيق لكيفية الانتقال من هذه الأرض التي نعيش

---

(١) أخرج البخاري [٦٥٢١]، ومسلم [٢٨/٢٧٩٠] عن سهل ابن سعد رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي. ليس فيها علم لأحد».
قال ابن الأثير: قوله: «عفراء» بيضاء، والعفرة: البياض. قوله «النقي» أراد به الخبز الأبيض الحواري.

عليها إلى أرض المعاد، إذ يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ أي: لن يفلت أحد، الكل قادم، من لدن آدم عليه السلام أول الخلق إلى آخر نفس جاءت لهذه الدنيا، ولكن ليس الكل قادم باختياره أو مشيئته، بل ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

فما هو السائق؟ السائق في اللغة هو الذي يسوق الغنم إلى المرعى، وهو الحريص على أن تسير الغنم في الطريق المرسوم إلى مكان الماء أو العُشب فلا تتجه يميناً أو يساراً، بل هي ذاهبة إلى مكان محدد لها، حيث يوجد العُشب أو الماء، والسائق يسوقها أمامه حتى يوصلها إلى هذا المكان، ولماذا يسوقها أمامه؟ لماذا لا يجرها خلفه؟ أو لماذا لا يأتي بواحدة أو اثنتين من هذا القطيع فيسوقهما والكل يتبعه، لأنه لو فعل ذلك وجعلها خلفه؛ قد تنحرف واحدة من القطيع يميناً أو يساراً، أو تبتعد عن الطريق، دون أن يدرك هو ذلك، ولكنها حين تكون أمامه يمنع هذا الانحراف إذا حدث، ويعيدها إلى الطريق المرسوم.

وهذا التشبيه الذي أعطاه لنا القرآن الكريم في هذه الآية، هو الذي سيحدث يوم القيامة تفصيلاً، فعندما ينفخ في الصور، ونخرج من القبور، سيكون لكل واحد منا سائق ينتظره، ذلك السائق من الملائكة[1] الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وهذا الملك مكلف بأن يسوق الإنسان من مكان الحشر على هذه الأرض التي نعيش فيها إلى المكان المحدد له في أرض المعاد، حيث سيتم الحساب، وهذا الملك يكون خلف الإنسان، تماماً كما يكون سائق

---

(١) قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله، هذا هو الظاهر من الآية الكريمة، وهو اختيار ابن جرير. ثم روي من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن يحيى بن رافع مولى لثقيف قال: سمعت عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه يخطب فقرأ هذه الآية ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فقال: سائق يسوقها إلى الله تعالى، وشاهد يشهد عليها بما عملت، وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد.

وقال مطرف عن أبي جعفر مولى أشجع عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: السائق الملك، والشهيد العمل، وكذا قال الضحاك والسدي، وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: السائق من الملائكة، والشهيد الإنسان نفسه؛ يشهد على نفسه، وبه قال الضحاك بن مزاحم أيضاً.

تفسير ابن كثير [٤٠/٢٢٦].

الأغنام خلفها، والإنسان لا يغيب عن الملك المكلف به ولو لحظة، ولو برهة، بل يسوقه الملك وهو أمامه حتى مكانه في أرض المعاد، ويكون حريصاً عليه لا يستطيع الإنسان أن ينحرف يميناً أو يساراً، فإذا انحرف قام الملك بتصحيح مساره.

وقوله تعالى: ﴿وَشَهِيدٌ﴾؛ أي: ليس معها فقط سائق يوصلها إلى المكان المحدد لها في أرض المعاد، بل معها أيضاً الشهيد، وهو: أعمالها، شريط حياتها، ما فعلته في الدنيا لحظة بلحظة، حتى إن الحق سبحانه وتعالى يُعطينا لمحة عن دقة الحساب فيقول سبحانه وتعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

أي: أن هذا الكتاب هو الشاهد على الإنسان، والشهيد عليه، لا يترك عملاً صغيراً إلا أحصاه، فإذا كان لا يترك صغيرة، فإنه من باب أولى لا يترك كبيرة.

❁ ❁ ❁